سلاح المقاومة الثقافية الموريتانية في القرن 13 هـ ، 19 م
الشعر الفصيح نموذجاً

الشيخ ولد احمدو
قسم اللغة العربية وآدابها

المقدمة:

طرح في الفترة الأخيرة وبإلحاح موضوع المقاومة الوطنية ضد المستعمر الفرنسي، واختلف الناس حول أهميتها وأصنافها طرائق قددا. فمن قائل إنه لم تكن هناك مقاومة أصلا وإنما هناك دعاية لهذه الجهة أو تلك أو لهذه القبيلة أو تلك أو لهذا الشخص أو ذاك. ومن زاعم أن المقاومة الموريتانية كانت قوية ومتنوعة وفريدة من نوعها أجبرت المستعمر على الرحيل نهارا جهارا. ورأي آخر يرى أن الفعل المقاوم كان ثقافيا في المقام الأول حفظ للبلاد هويتها ووقف بالمرصاد لمحاولات التغريب والاستلاب الحضاري.

وبالمقابل برز اتجاه آخر لا يرى للمقاومة إلا معنى عسكريا صرفا أجبر الفرنسيين في نهاية المطاف على الرحيل، ولا يرى للفعل الثقافي أية مهمة مقاومة. ولسنا معنيين في هذه العجالة بتمحيص هذه الآراء وترجيح بعضها، بل إننا نرمي إلى استنطاق بعض النصوص الشعرية التي هب أصحابها لمواجهة الاستعمار الثقافي واللغوي الذي كان دائما السمة المميزة للاستعمار الفرنسي وسواء بعد ذلك اعتبرنا تلك النصوص فعلا مقاوما أم لا.

وقبل الشروع في استعراض بعض النصوص المذكورة، نرى من المناسب أن نشير إلى مكانة الشعر في الثقافة الموريتانية. ولا بأس في القول بشيء من الثقة إن الشعر كان أكثر الفنون الأدبية إنتاجا واستهلاكا في المجتمع الموريتاني منذ القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي على أقل تقدير.وربما كان ذلك منشأ تسمية موريتانيا الشائعة اليوم في البلاد العربية وهي "بلاد المليون شاعر".ومع ما في هذه التسمية من مبالغة غير خافية، فإن فيها مع ذلك دلالة على مدى ما كان للشعر من مكانة في ثقافة القوم.ومن هذه المكانة تنبع أهمية الشعر كأداة تحسيسية وتعبوية في مجتمع بدوي يمثل فيه الشاعر لسان حال قبيلته ومجتمعه ؛ إذ يضحي الشعر أهم أدوات الدعاية والتحريض بل وأهم وسائل الإعلام على الإطلاق.

إن المتتبع للنصوص الشعرية التي كتبت فيما قبل القرن العشرين الميلادي، والتي تعتبر بواكير المقاومة الثقافية في البلاد، ليعجب من نفاذ بصيرة أصحابها وقوة استشعارهم للخطر المقبل حيث حذروا من ما سيؤول إليه حال البلاد والعباد في ظل سيطرة النصارى، وذلك قبل اكتمال هذه السيطرة بقرابة قرن من الزمان .!

ويمكن اعتبار ابن الشيخ سيدي[1] (1832م/1247هـ . 1869/1285هـ) أول الشعراء تحذيرا من النيات الحقيقية للمستعمر الفرنسي المتخذ من السنغال قاعدته الأساسية

---

[1]. هو الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي الأبييري دارا التندغي الحلي نجارا، ولد سنة 1247هـ/1832م.تربى في حضرة أبيه الشيخ سيديا الكبير (ت1284هـ/1868م)، والذي كان شخصية دينية وعلمية وسياسية كبيرة.ورغم عمره القصير فقد كان له شأن سياسي تمثل في التحذير من الخطر الاستعماري الداهم، كما كان يدعو إلى تنصيب إمام يبسط سلطته على البلاد ويواجه الأطماع الخارجية المتربصة بها.توفي سنة 1285هـ/1869م.راجع بشأنه: . د. أحمد جمال ولد الحسن "**الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر. مساهمة في وصف الأساليب**، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس الغرب 1995م، ص.138 وما بعدها.

في المنطقة، ومنطلقه نحو استكشاف المجال الموريتاني.وربما كان الشأن السياسي الذي اضطلع به والده الشيخ سيديا الكبير، من أسباب ذلك الحس الديني والوطني الذي نلمسه في قصائده التي حذر فيها من ما يبيته النصارى من مكائد ومؤامرات الهدف منها السيطرة على البلاد وتسخيرها لخدمة أهدافهم الدينية والإستراتيجية والاقتصادية.

وسنقتصر في تناولنا لإنتاج ابن الشيخ سيدي الشعري الفصيح . في هذا المقام . على قصيدة[1] من أشهر قصائده ينذر فيها مجتمعه عواقب التغاضي عن المشاريع الفرنسية لاحتلال البلاد.وتبدأ القصيدة على النحو التالي:

رويدك إنني شبهت دارا

على أمثالها تقف المهارى

تأمل صاح هاتيك الروابي

فذاك التلّ أحسبه "أنارا"

وتان الرملتان هما "ذواتا

عليّان" وذا "خط الشقارى"[2]

وتستمر المقدمة الطللية على هذا النحو مستحوذة على تسعة عشر بيتا من القصيدة البالغ عدد أبياتها سبعة أبيات ومائة، قبل أن تفضي بالشاعر إلى الغرض

. د. محمد المختار ولد اباه، **الشعر والشعراء في موريتانيا**، تونس 1987 م ص.75.

. أحمد بن الأمين الشنقيطي، **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، منشورات مكتبة المنير في نواكشوط ومكتبة الخانجي في القاهرة، 1989 ، ص.243.

[1]. نقلنا المقاطع المستعرضة منها عن الخليل النحوي، **المنارة والرباط**، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1986 ص.400 . 403.

[2]. "أنار" و"ذواتا عليان" و"خط الشقار"، تعريب أسماء مواضع في ولاية التزارزة.

الرئيس وهو استنهاض الهمم وبث روح الحماس والغيرة لحماية البلاد من الخطر الفرنسي الداهم.وفي هذا السياق بدأ الشاعر بداية قوية حيث عزف على أكثر الأوتار حساسية لدى الموريتانيين ألا وهو دينهم وعقيدتهم، متسائلا . وبمرارة . عن من بوسعه حماية ذلك الدين الذي يوشك أن يقع أسيرا للفرنسيين النصارى الذين يريدون به الهوان والصغار.يقول:

ولو في المسلمين اليوم حر

يفك الأسر أو يحمي الذمارا

لفكوا دينهم وحموه لما

أراد الكافرون به الصَّغارا

حماة الدين إن الدين صارا

أسيرا للصوص وللنصارى

وبعد تشخيص الوضعية التي يعيشها الإسلام والمتمثلة في مواجهته لعدوين يتربصان به الدوائر: عدو داخلي هو حالة الفوضى وقوامها السلب والنهب الذي تمارسه بعض المجموعات الحسانية، وعدو خارجي هو الاستعمار الفرنسي النصراني الذي بدأ يطرق باب البلاد بقوة وصلف، يعرض الشاعر وجهة نظره في ما يتعين على المسلمين القيام به دونما تأخير لإنقاذ البلاد والعباد:

فإن بادرتموه تداركـوه

وإلا يسبق السيف البدارا

بأن تستنصروا مولى نصيرا

لمن والى ومن طلب انتصارا

مجيبا دعوة الداعي[1] مجيرا

من اللأواء كل من استجارا

ولا يكتفي الشاعر باستنهاض الهمم ووصف ما يتطلبه الموقف من التحرك السريع قبل فوات الأوان، مذكرا بضرورة التعويل على الله تعالى أولا وأخيرا، قبل أن يضع تحت أيدي المقاتلين خطة عسكرية مفصلة ومتكاملة، مبينا عن حس عسكري مستغرب على شاب مثله ينتمي إلى قبيلة زاوية غير محاربة:

وأن تستنفروا جمعا لُهامًا

تغص به السباسب والصحارى

تمر على الأماعز والثنايا

قنابلُه فتتركها غبارا

تني رُبْدُ النعام بحافتيه

وتعيى دون معظمه الحبارى

يلوح زهاؤه لك من بعيد

كما رفع العساقيل الحرارا

تخال سلاحه شهبا تهاوى

وتحسب ليله النقع المُثارا

ولولا النقع إن يلمع بليل

لصيَّر ضوؤهُ الليلَ النهارا

---

[1]. يشير إلى قوله تعالى: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ"، البقرة، الآية 186.

بكل طليعة شهباء تبدي

إذا طلعت من الصدإ اخضرارا

وتخفق فوقها بالنصر راي

فتحسبها بها روضا أنارا

وإن العجب ليأخذ من المرء كل مأخذ، وهو يقرأ هذا الوصف الذي يكاد يكون فوتوغرافيا، لهذا الجيش الجرار الذي لم ير الشاعر مثله في حياته، ولكنها الثقافة الواسعة التي تقرب البعيد وتجعل الصورة الذهنية ماثلة للعيان.ويمضي الشاعر في المراوحة بين توضيح ملامح الخطة العسكرية لمواجهة النصارى والمضمون التعبوي في خطابه الشعري، متكئا على العاطفة الدينية الجياشة لدى المقاتلين المحتملين:

وفتيان يرون الضيم صابـًا

وطعمَ الموت خُرطوما عُقارا

أحبوا الملة البيضا[1] فكانوا

عليها من مُراودها غيارى

قبل أن يعاود وصف عناصر المشهد العسكري مبرزا ما للخيل من شأن عظيم في ذلك المشهد وما لها من مكانة لدى القوم:

وسَلْهَبَة مفاصلُها ظِماء

قوائمُها رواء لا تجارى

عليها من محاسنها شهود

على أن لا تباع ولا تعارا

---

[1]. يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك" الحديث.

ثم يعود إلى وصف السلاح الذي بحوزة المقاتلين، فيبدع في الوصف أيما إبداع:

بأيديهم مُذَرَّبَةٌ طـوال
تُري الأقرانَ أعماراً قصـارا
وبيض مرهفات جردوهـا
وردوها من العلق احمرارا
وكل أخي فمين أبى اعتدالاً
وتقويما عن الغرض ازورارا
حذاه بكالهلال مُوَشِّحـوه
بكالجوزاء صوغاً وازدهارا
بوشي حَبَّروه وأودعـوه
تماثيلاً ترى فيها اعتبارا
من العدد الألى آلي "سماك"[1]
بروح الله عيسى لن تبارى
تَلَظَّى النارُ في الكانون منه
إذا ما صافح الزندُ الشِّفارا

وبعد هذا الوصف الدقيق للجيش الجرار الذي يتمنى ولد الشيخ سيديا أن يراه في معمعان المواجهة مع الفرنسيين، وبعد وصف ما لهذا الجيش من عدة وعتاد، ينتقل إلى تحديد الأسباب التي جعلت هؤلاء يجرؤون على المساس بالإسلام وديارة، وهي أسباب يرجعها إلى الضعف والانحطاط الذي أصاب المسلمين.ثم يوضح أن الروم كما يسميهم إنما يختبرون مدى تصميم المسلمين على الدفاع عن بلادهم:

---

[1]."سماك" فرنسي كان البيضان يبتاعون منه السلاح على ضفتي نهر السنغال.نقلا عن الخليل النحوي، المنارة والرباط، مرجع سابق، ص.412.

وروم[1] عاينوا في الدين ضعفا
فراموا كل ما راموا اختبارا
فإن أنتم سعيتم وانتدبتم
برغم منهم ازدجروا ازدجارا
وإن أنتم تكاسلتم وخمتم
برغم منكم ابتدروا ابتدارا
فألفوكم كما يبغون فوضى
حيارى لا انتداب ولا ائتمارا

ويستعرض الشاعر في الأبيات ذاتها النتائج التي ستترتب عن حالة الفوضى والحيرة تلك، وأهونها احتلال الأرض واستعباد السكان، وذلك قبل أن يعاود الدعوة إلى الجهاد مبديا تبرمه بتقاعس القوم وتوانيهم عن إجابة داعي الله.غير أنه يحس راحة الضمير؛ لأنه بذل كل ما بوسعه ؛ لأنه محض قومَه النصحَ وحذرهم من عواقب التقاعس عن جهاد الكفرة الفرنسيين، ويخلص في الخاتمة إلى أن الله تعالى شاهد على أنه لم يأل جهدا في مواصلة التحريض على الجهاد رغم صدود القوم وتصاممهم:

وربي شاهد وكفى شهيدا
به أني دعوتكم جهارا[2]
وكم من ناصح قبلي دعاكم
جهارا بعد ما يدعو سرارا[3]
وكل حين يدعو لم يزدكم
دوام دعائه إلا فرارا[4]

---

[1]. المقصود : الفرنسيون، وكان البيضان يطلقون تسمية "الروم" على الأوروبيين بمختلف جنسياتهم.

[2]. يشير إلى قوله تعالى حكاية عن نوح:"ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا"، سورة نوح، الآية8.

[3]. يشير إلى قوله تعالى حكاية عن نوح:"ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا"، نوح، الآية9.

[4]. يشير إلى قوله تعالى حكاية عن نوح:"فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا"، نوح، الآية6.

تلك بعض المقاطع من قصيدة الشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيديا، أوردناها باعتبارها من الإرهاصات الأولى للمقاومة الثقافية في شقها الأدبي.وقد رأينا ما تضمنته من استشراف للمستقبل، بل ومن نبوءات تحقق الكثير منها. ولم يكن ابن الشيخ سيدي الوحيد الذي عمل على مقاومة الفرنسيين شعرا، فهذا الشاعر "اجدود ولد اكتو شني" العلوي[1] يقول في إحدى قصائده مطالبا المسلمين بالاستعداد لقتال الفرنسيين إبان محاولاتهم الأولى . على ما يبدو . للاستقرار على الضفة اليمنى للنهر والتي تجسدت ضمن ما تجسدت فيه في حربهم مع الترارزة:

حاصر المسلمينَ جندُ النصارى
بيد الله أن يزيل الحصارا[2]
ويبيدَ العدا وينصر قوما
أكثرت فيهم النصارى البوارا
فلقد قامت القيامة فيهم
ولقوا من أذى الحصار كثارا
فترى الناس في الحصار سكارى
لا لعمري وما هم بسكارى[3]
أثخَنوهم وأوثَقوا وأغاروا
رَبِّ فانصرهم على من أغارا
وسبَوا منهم النساء الغواني
والأيامى واستعبدوا الأحرارا

---

[1]. (ت 1865م/1282هـ)، عالم موريتاني من منطقة الترارزة كان شيخ محضرة تخرج عليه عدد من علماء البلاد.اشتهر بمناهضة التعامل مع الفرنسيين ودعا إلى مواجهتهم والتصدي لهم.

[2]. نقلنا المقاطع المذكورة من القصيدة عن "الشعر السياسي الإصلاحي الموريتاني في القرن الثالث عشر ص.83 وما بعدها.

[3]. يشير إلى قوله تعالى:"يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ"، الحج، الآية 2.

وتطفح هذه الأبيات بالمرارة والغضب مما اقترفه الفرنسيون بحق السكان من فظاعات تبدأ بالحصار ومنع المؤن ولا تنتهي بالأسر والاستعباد.ولكن الشاعر لا يستكين للواقع المر الذي وصفه، وإنما يهب داعيا إلى التصدي للفرنسيين وجهادهم وفق ما أمر الله به من الاتحاد والتعاضد، والابتعاد عن الفرقة والتنازع لما في ذلك من ذهاب للريح وتبديد للقوة:

أيها المسلمون شدوا عليهم
وانزلوا "الزّير" وانزلوا "گنـارا"[1]
واعبروا البحر في مواخر فلك
أحكم العجم لوحـها والدسارا
سارعوا للجهاد بعد التوانـي
واجعلوا خشية الإله شعـارا
جاهدوا في الإله حق جهـاد
ولتكونوالربكم أنصـــارا
وانفروا للوغى خفافا ثقالاً[2]
لا يثبطكـم اللعينُ اغترارا

وبعد هذه الدعوة القوية إلى الجهاد، والحث على قتال الفرنسيين في المناطق التي بدؤوا يحاولون التمركز فيها على الضفة اليمنى للنهر، يحذر الشاعر من خيانة الإمام . والمقصود هو محمد الحبيب أمير الترارزة آنذاك . :

لا تخونوا إمامكم وانصروه
إن في خونه لـذلاً وعارا

---

[1]. گنار والزيرة منطقتان على الضفة اليمنى للنهر قرب مدينة سينلوي السنغالية، ويبدو أنها كانت ساحة معارك بين الفرنسيين ومحمد الحبيب أمير الترارزة في الحرب التي سميت حرب الصمغ.

[2]. يشير إلى قوله تعالى: "انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون"، التوبة، الآية 41.

طالما حاول الجهاد وحيدا

أوحيد يروم فتح النصارى

فانصروه ينصركم الله طرا

واقتلوا المشركين والفجارا

يا حبيبا[1] أوجف عليهم بخيل

وبرجل[2] يهدم الأمصارا

ولا تقتصر دعوة الشاعر على التصدي عسكريا للفرنسيين، بل إنه يدعو كذلك إلى مواجهتهم اقتصاديا من خلال الامتناع عن بيعهم الصمغ العربي المعروف محليا بالعلك، والذي سميت به الحرب بينهم ومحمد الحبيب، لما في ذلك من مساعدة لهم وتقوية لهم على حساب المسلمين:

لا تعينوا بالعلك حزب الأعادي

أتعينون فاجرا كفارا[3]

فاقطعوا عنهم الشراء حذارا

أن يصروا على الأذى إصرارا

فإذا ما أعنتموهم أساؤوا

وأصروا واستكبروا استكبارا[1]

---

[1]. يعني أمير الترارزة محمد الحبيب.

[2]. يشير إلى قوله تعالى: "وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"، الحشر، الآية 6.

[3]. يشير إلى قوله تعالى: "إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا"، نوح، الآية 27.

وتمضي القصيدة على هذا النحو صرخة قوية ودعوة صادقة للسكان كي يبادروا إلى دفع العدو المشرف على الحدود قبل أن يتقدم خطوات أخرى ويستفحل أمره، فيندموا على تقاعسهم وتوانيهم ولات حين مندم.

والواقع أن جل القصائد التي أتيح لنا الاطلاع عليها، والتي يمكن اعتبارها بواكير للمقاومة الثقافية في شقها الأدبي، تنضح توثبا حماسة وتأجيجا للعاطفة الدينية لدى سكان هذا المجال للذب عن دينهم وهويتهم.كما لا يخفى ما في نصوص ولد الشيخ سيدي واجدود ولد اكتوشن من إحساس بالخطر الداهم الذي يمثله الاستعمار الفرنسي، الذي كان قد باشر التحرش بالحدود الجنوبية ؛ إيذانا بوضع مخططاته لاحتلال بلاد البيضان موضع التنفيذ.ولا نرى ضرورة بعد ذلك في استطراد نماذج أخرى من المقطعات الشعرية التي اضطلع أصحابها بالتعبئة ضد الجحافل الفرنسية التي كانت تعد العدة للسيطرة على البلاد، فحسبنا أننا قدمنا منها نماذج نعتقد أنها تمثلها خير تمثيل.!

الخاتمة:

ويمكن القول عموما إن علماء البلاد وشعراءها انتبهوا مبكرا إلى الأهداف الفرنسية على حقيقتها، فهبوا يحذرون من التعامل مع الفرنسيين ويعبئون السكان للتصدي للمخططات الفرنسية للسيطرة على موريتانيا، وذلك قبل تنفيذ تلك المخططات بما يقرب من قرن من الزمان.ولذلك واجه الفرنسيون عند بداية تغلغلهم في الأراضي الموريتانية . علاوة على المقاومة العسكرية . مقاومة ثقافية قد اشتد عودها وقويت

---

[1]. يشير إلى قوله تعالى: "وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا"، نوح، الآية 7.

شوكتها، لاستلهامها مواقف الرواد من العلماء والشعراء المشار إليهم أعلاه.فقد كان الشأن العظيم الذي قام به هؤلاء الأساس الذي بنى عليه أبناؤهم وأحفادهم[1]، فحملوا راية المقاومة الثقافية خفاقة في وجه المستعمر وثقافته؛ فحفظوا للبلاد هويتها وصانوا للمجتمع خصوصياته الدينية والثقافية.فما أهم أوجه المقاومة الثقافية التي أبدتها النخب المثقفة في مواجهة الاستعمار الفرنسي وقد أصبح حقيقة ماثلة؟ وإلى أي حد ساهمت تلك المقاومة في الحفاظ على الهوية الدينية والحضارية للبلاد؟

المصادر والمراجع:

أحمد بن الأمين الشنقيطي، " الوسيط في تراجم أُدباء شنقيط"، مكتبة المنير بانواكشوط ومكتبة الخانجي بالقاهرة 1989

د. أحمدو جمال ولد الحسن، " الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر، مساهمة في وصف الأساليب"، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس الغرب 1995م

الخليل النحوي، " المنارة والرباط "، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1986م

عبد الله ولد حمدي، " الشعر الإصلاحي السياسي في موريتانيا في القرن الثالث عشرّ"،

د. محمد المختار ولد أباه، " الشعر والشعراء في موريتانيا"، تونس 1987م

[1] - لا يغيب عنا مثلا أن الشيخ سيدي بابه وهو نجل الشاعر سيدي محمد ولد الشيخ سيدي، كان ممن هادن الفرنسيين وتعامل معهم بل وله في ذلك فتاوى ومواقف مشهورة.